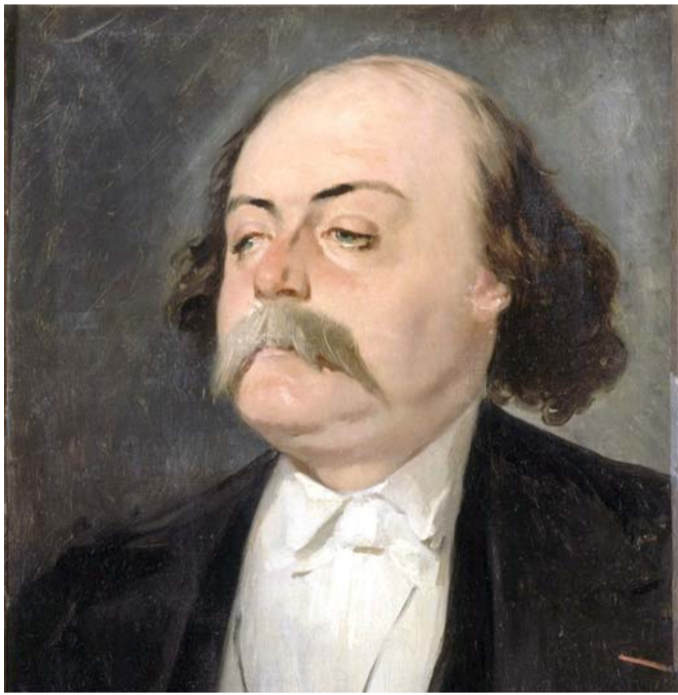


سلامبو.. رواية كتبها فلوبيير لقرطاج وعلى ضفاف قرطاج

قصة حب يتخفى بين المعارك والعنجهية الأرستقراطية



في هذا المنزل بضاحية قرطاج بتونس كتب فلوبيير رائعته سلامبو



فلوبيير.. أثار ظهره للرومانسية وأبحر نحو سردية تاريخية

لا تنهزم أبدا بل تقتل الغادين بها في أهلك اللحظات كما حدث مع قلب ماطو، لحقت "مدمام بوفاري".

ويؤكد المؤرخون والدارسون لأدب فلوبيير أن الأخير كانت أمنيته الكبيرة أن يقرأ بإياد هوميروس الأصلية، وتتجلى المواقف التقليدية للملحمة في "سلامبو": إحصاءات وتنقلات هائلة للجوش، أو لأمة بأكملها، مآثر عسكرية، صداقات حماسية، أعمال فريدة تندرج في عمل جماعي شامل، دسائس ومكائد، وكل حركة تسمى مآثرة" كما يقول أحد النقاد.

اختلطت الرومانسية مع الواقعية في رواية "سلامبو" ضمن نسج ملحمي أسير، استند على الأسطورة وزاوجها مع التاريخ لتأكيد حقيقة لا تقبل الجدل، وهو أن المشاعر الإنسانية بإمكانها أن تهزم كل الحسابات السياسية والعسكرية، وتسمو فوق الحساسيات العنصرية والطبقية. كان فلوبيير بلاحق الأنوثة ويتبع إعوائتها منذ روايته "مدمام بوفاري"، ويتحيز لفكرة أن المزاج الإنساني عصي على أي تدجين أو تصنيف فكري أو اجتماعي.

"سلامبو" ابنة أميلكار وكاهنة معبد تانيت، تكشف عن الإغواء المقدس الذي طالما تردد في الأساطير وتاريخ الديانات، تفضي رونقا وبهاء الحكاية التي لا يمكن لها إلا أن تؤنثت.. هل استمتعتم يوما بحكاية أبطالها من الذكور؟ بالتأكيد لا، وكذلك خلوها من الشعر واستشراف المستقبل كما يتجلى مبدأ الموت في أنشودة سلامبو التي تصف رأس ماسيسبال المقطوع، والذي تحنطه حركة الماء والشمس وتجعله أكثر صلابة من الذهب - تصوير وتحنيط خيالي - وكانها بفلوبير يبحث عن جمع مستحيل بين الواقع والمصير، بين الحاضر والمستقبل.

جمالها.. وهنا تبدو مرجعية فلوبيير واضحة وجلية في قصة سالومي ويوحنا المعمدان في الكتاب المقدس.

وفي الفصل الحادي عشر من الرواية، تصل سلامبو إلى خيمة ماطو دون أن يلاحظها أحد، وتبليوكة من يدها تستولي على الوشاح المقدس المسمى "الزعيمف". ماطو يقف مبهورا بسلامبو ويقعان في عنق طويل، في إشارة إلى أنهما قد دخلا طور القداسة، إلا أن ماطو يقع مغشيا عليه في سبات طويل، وتلوذ سلامبو بالفراغ مصطحبة معها الوشاح الإلهي المقدس.

يفواصل حصار المرتزة لقرطاج عبر استخدام قنوات المياه ويتضرعون إلى الإلهة بغية فك الحصار عبر الأضاحي والقربان من الأطفال، وهنا يبرز مكر حملقار الذي ضحى بأحد أبناء المرتزة موهما الجميع أن القربان هو ابنه هنيبل الذي سوف يكون بطل الحرب البونيقية الثانية ضد روما.

وكان الإلهة تتمثل لصلوات القرطاجي حملقار، تأتي عاصفة ممطرة وتملأ بالمياه خزانات مدينة قرطاج.

تستمر مكائد قادة قرطاج ضد معارضتهم من المرتزة الذين عانوا العيش والجوع حتى صار يلتهم بعضهم بعضا، ومات الكثير منهم تحت أقدام الفيلة التي استخدمتها قرطاج من مجالس أفريقية قصد محاربة روما في ما بعد.

وفي الفصل الأخير من "سلامبو" تحتفل قرطاج بانتصارها على المعارضة المرتزة من خلال حفل زواج سلامبو من القائد الذي تصدى لهم، تتم إبادة المرتزة عن بكره أبهم ولم يبق منهم إلا زعيمهم ماطو، الذي يؤتى به إلى الحقل للنفخ في تعذيبه قصد تسليمة جمهور الحاضرين.

باتي كاهن قرطاج فينتزع قلب المعارض ماطو، لكن شيئا لم يكن في الحسابان هنا نموت سلامبو، لهذا الفعل، ذلك أن كل من يلامس الرداء الإلهي المقدس، يموت عند قتل كل من يلامسه سواء كان من القرطاجيين أو المعارضين، فلقد سبق أن لامست يدا ماطو الرداء المقدس.

وهنا تنتهي رواية فلوبيير عند هذا المشهد الأخاذ بعد فصول مشوقة وملئية بالأحداث الملحمية التي نانس فيها صاحبة أشهر الملاحم اليونانية عبر رموز كان قد استنهضها من تاريخ قرطاج ووظفها لخدمة أفكار ذلك الرجل الذي اتسمت حياته بالغرابة والتفكير خارج السرب.

إغواءات الأنوثة

كان الشاعر والكاتب الفرنسي بولير متأثرا بالظلمة الملحمية لـ"سلامبو"، وكذلك كان يعتقد الألماني غوته أنه من الواجب مطالعة هذا العمل كقصيدة ملحمية وليس كرواية. وقد تكلم فلوبيير نفسه بعد إتمام "مدمام بوفاري" عن هواجسه الملحمية، إذ استهوتته الملحمة كصنف ولون، وما

فريقيين، ليهاجموا يوتيكا وهييو زاريتوس. يفاجل القائد حنون سينديوس في يوتيكا، ويحتل المدينة. إلا أن الأخير يفر عندما يحضر ماطو ويطرده قوات حنون.

وفي الأثناء يعود حملقار، بطل الحرب ضد روما، إلى قرطاج. يواجه لوما لهزيمة حنون، فيدافع عن نفسه أمام المجلس ويدافع عن حقوق المرتزة الذي كان قائدهم من قبل. ولكن عندما يرى الدمار الذي الحقوه بحادثه أثناء العيد، فإنه يقبل عرض قدامى المحاربين بشن الحرب على المرتزة.

طور القداسة

تتوالى الأحداث بين منتصر ومغلوب ضمن حيل وخطط عسكرية يقع في إدهاها القائد حملقار نفسه، ثم تنتهي بانتصاره على قائد المتمردين وزعيمهم، لكن معاناة قرطاج تستمر من جراء هذه المعارك والحروب إلى أن تبلغ حد المجاعة وتخور معنوياتها نتيجة خسارتها لذلك الوشاح الإلهي المقدس، والذي يعود له الفضل في حمايتها.

القائد القرطاجي شهاب عارم، يقنع سلامبو، بالعودة للتفاوض مع زعيم المعارضة ماطو، وذلك باستخدام سحر

المحتم لكل من يمد يده لسرقته. ومن هذه الميثولوجيا القرطاجية يبني فلوبيير حكايته الأسرة في 15 فصلا لينقل إلى القارئ الغربي سحر الشرق، ويقارع أعنى الملاحم الإغريقية التي طالما حاول مجازاتها في قوله الدائم بأنه كان يتمنى قراءة إياد هوميروس بلغتها الأصلية.

وكما في افتتاحيات التراجيديات اليونانية يبدأ الفصل الأول في "سلامبو" بيوم العيد حيث يقيم المرتزة في قرطاج احتفالا بانتهاء الحرب في حدائق قائدهم حملقار. يشتعلون غضبا لتذكرهم المظالم التي اقترفتها قرطاج في حقهم، فيدمرون الحدائق ويعيشون تخريبا في تلك المنجزات احتجاجا على تأخر الدولة في دفع رواتبهم.

الأميرة "سلامبو" ابنة القائد، تنزل لتهدئتهم فيقع في غرامها الزعيم في معسكر المرتزة، ماطو وسينديوس، العبد المعقوق، الذي ينصحه بأن يصحب سلامبو إلى قرطاج.

تتوالى الأحداث متسارعة، وقرطاج تقع المرتزة بمغادرة المدينة حتى تحضر رواتبهم، فيعسكرون في سبكا (مدينة الكاف التونسية حاليا). الحاكم حنون يذهب للمرتزة ويخبرهم بتأخير في دفع مكافاتهم، إلا أن سينديوس يبلغ عن خبر مقتل 300 مرتزق بقوا في قرطاج. وتحت أسوار قرطاج، يعود المرتزة إلى محاصرة المدينة، ويتسلل ماطو وسينديوس في جنح الليل عبر مجرى المياه.

ماطو يسرق "الزعيمف" أي الوشاح السحري المقدس للإلهة تانيت في المعبد، ويهرب دون صعوبة، متحصنا بارتدائه "الزعيمف". وفي الفصل السادس، يغادر المرتزة قرطاج، وينقسمون إلى

رغم أن فلوبيير لم يكتب إلا خمس روايات طيلة حياته. إلا أن كل رواية كانت تشكل حدثا في تاريخ الأدب العالمي وعلما بأسره، ولا يزال النقاد منشغلين بدراساتها وتحليلها، كما يقول الناقد الأنغلو سكسوني فريدريك براون. يكفي فلوبيير، الذي يحتفل العالم بمرور 200 عام على ولادته، فخرا أنه الكاتب الذي غير مجرى حياة الرواية فانتقل بها من الرومنطيقية إلى الواقعية باعتراف معظم النقاد.

ثقافة ذلك العصر، ولنبدا بالشخصيات القرطاجية التي يبدو أن الكاتب قد أبدى تعاطفا معها على حساب الشخصيات البربرية وباقي من وصفهم بـ"المرتزة". حملقار برقة (أو أميلكار)، أحد حاكمي قرطاج، وقد عاد إلى صقلية ليستعيد سيطرته على المعسكر.

سلامبو، ابنة حملقار، وقد وهبت للإلهة تانيت (الهة الخصوبة التي تعد امتدادا لعشتار). الاسم الأهم لفلوبير من أسماء الإلهة عشتارت: سلامبو هي الصيغة اليونانية من الاسم الفينيقي "تسلميل"، أي "صورة بعل".

حنبل، ابن حملقار الذي حملته سرا الجارية "عبدالونيم".

● سيسكو، جنرال ودبلوماسي.

● حنون، حاكم آخر لقرطاج، أصابه مرض جلدي.

● نسياباريم، كاهن تانيت، ومعلم سلامبو.

● ماطو، زعيم المرتزة فهي:

● نار حواس، زعيم المرتزة

النوميديين، الذي وعد بسلامبو لو انتصر.

● سينديوس، عبد يوناني مهدي

لماطو.

● اوتاريتوس، زعيم كتيبة من المرتزة.

أما أبرز المحاور والأحداث التي طبعت الرواية الشهيرة، فإنها، وبعد الحرب البونيقية الأولى التي خاضتها البلاد ضد روما (264 ق م)، لا تتمكن قرطاج من الوفاء بالوعود التي قطعها لجيش المرتزة والانتشاريين من البربر وغيرهم، وتجد نفسها تحت هجوم أحد زعمائهم واسمه "ماطو" بمساعدة العبد المعقوق الماكر، سينديوس. يسرق ماطو الخمار المقدس لقرطاج، مما يدفع بسلامبو، الشخصية الخيالية صاحبة العنوان، وهي كاهنة وابنة حملقار برقة، الجنرال القرطاجي الأرستقراطي، لدخول واختراق معسكر الأعداء بغية سرقة الخمار أو الوشاح المقدس المسمى بـ"الزعيمف" وهو خمار مزين بالجواهر الثمينة، تنتسج به الإلهة "تانيت" في قدس أقداس معيبدتها. وهذا الخمار هو حارس المدينة ومجرد ملامسته تجلب الموت

المحتم لكل من يمد يده لسرقته. ومن هذه الميثولوجيا القرطاجية يبني فلوبيير حكايته الأسرة في 15 فصلا لينقل إلى القارئ الغربي سحر الشرق، ويقارع أعنى الملاحم الإغريقية التي طالما حاول مجازاتها في قوله الدائم بأنه كان يتمنى قراءة إياد هوميروس بلغتها الأصلية.

وكما في افتتاحيات التراجيديات اليونانية يبدأ الفصل الأول في "سلامبو" بيوم العيد حيث يقيم المرتزة في قرطاج احتفالا بانتهاء الحرب في حدائق قائدهم حملقار. يشتعلون غضبا لتذكرهم المظالم التي اقترفتها قرطاج في حقهم، فيدمرون الحدائق ويعيشون تخريبا في تلك المنجزات احتجاجا على تأخر الدولة في دفع رواتبهم.

الأميرة "سلامبو" ابنة القائد، تنزل لتهدئتهم فيقع في غرامها الزعيم في معسكر المرتزة، ماطو وسينديوس، العبد المعقوق، الذي ينصحه بأن يصحب سلامبو إلى قرطاج.

تتوالى الأحداث متسارعة، وقرطاج تقع المرتزة بمغادرة المدينة حتى تحضر رواتبهم، فيعسكرون في سبكا (مدينة الكاف التونسية حاليا). الحاكم حنون يذهب للمرتزة ويخبرهم بتأخير في دفع مكافاتهم، إلا أن سينديوس يبلغ عن خبر مقتل 300 مرتزق بقوا في قرطاج.

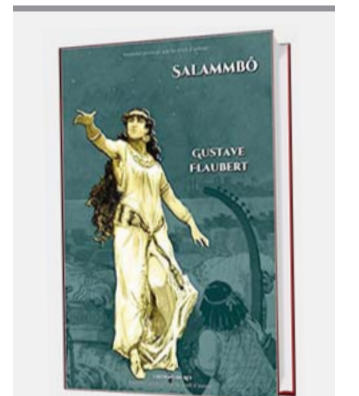
وتحت أسوار قرطاج، يعود المرتزة إلى محاصرة المدينة، ويتسلل ماطو وسينديوس في جنح الليل عبر مجرى المياه.

ماطو يسرق "الزعيمف" أي الوشاح السحري المقدس للإلهة تانيت في المعبد، ويهرب دون صعوبة، متحصنا بارتدائه "الزعيمف". وفي الفصل السادس، يغادر المرتزة قرطاج، وينقسمون إلى

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

هل من المتوقع أن تحدث رسوم أزياء متوقعة في رواية تاريخية، ثورة في عالم الموضة، لما أوجت به تلك الأزياء للمصممين في باريس وكافة عواصم الموضة في العالم؟ إنها مثال لما وصف بـ"الغرائبية الحسية"، وإبحار في عالم الأسطورة القادم من الضفة الجنوبية للمتوسط بالنسبة للفرنسيين الذين كانوا يتأهبون لاستعمار أفريقيا الشمالية آنذاك.

هذا ما فجرته الرواية الملحمية للكاتب الفرنسي الشهير غوستاف فلوبيير (1821 - 1880) "سلامبو"، والتي يعدها النقاد والدارسون من أروع ما قدم صاحب "مدمام بوفاري" للأدب والفكر الإنساني، لما تزخر به من أحداث ومآثر وعبر، استنبطها هذا المدع الذي ألقى بين الرومانسية والواقعية في مزج ساحر بين الدقة التاريخية والحلم الخيالي، خصوصا بعد تعرفه إلى تونس ومصر وفلسطين.



سلامبو رواية مليئة بالأحداث الملحمية التي نانس فيها صاحبة الملاحم اليونانية عبر رموز استنهضها من تاريخ قرطاج

وعلى الرغم من أن تنشر رحلة غوستاف فلوبيير إلى الشرق تم بعد موته، فإن الروائي الكبير ساهم في ولع عصره بالشرق مع روايته "سلامبو" التي كان يباع منها ألف نسخة كل يوم، بالإضافة إلى كتابته "إغواء القديس انطونيوس" و"هيروديس" كما يقول صوفي باش، أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة باريس- السوربون.

ميثولوجيا قرطاجية

تدور أحداث الرواية في قرطاج أثناء القرن الثالث قبل الميلاد، وبالتحديد، زمن تمرد المرتزة الذي نشب مباشرة بعد الحرب البونيقية الأولى.

المصدر الرئيسي لفلوبير في "سلامبو" كان الكتاب الأول من تواريخ بوليبيوس، لكن الأهم هو إقامته في تونس وإطلاعه على تفاصيل الحياة اليومية التي تمثل بلا شك، امتدادا للحياة القرطاجية من حيث الأمجة العامة وطرق العيش والتفكير، حيث أقام في ضاحية المرسي المتاخمة لقرطاج (منزله ما زال قائما إلى الآن) وزاراته المتكررة إلى منطقة الكاف والقرى المحيطة بها في الشمال الغربي للبلاد التونسية. ترك فلوبيير في هذه الرواية الملحمة الأسرية، واقعية "مدمام بوفاري" وما مثلته له من شهرة، خلف ظهره وأبحر نحو سردية تاريخية لم يمتلك لها من مراجع كافية سوى الحدس والخيال فأبدع رواية تكاد تمثل بنفسها، مرجعا لتاريخ قرطاج قبل ثلاثة قرون من ميلاد المسيح.

وكما في معظم الملاحم والمسرحيات الإغريقية، كان عليا أولا أن نستعرض الشخصيات الرئيسية للرواية، وذلك لتيسير الدخول في الأحداث وتجنيب الخلط بين الأسماء التي تتشابه وفق